قصص
العاشقة والسكير
ناهده جابر جاسم
الأدهم
للنشر والتوزيع

العاشقة والسكير

قصص

ناهدة جابر جاسم

2015

العاشقة والسكير

قصص

ناهدة جابر جاسم

الطبعة الأولى: 2015

رقم الإيداع: 2014/9254

الترقيم الدولي: 978-977-748-044-4

دار الأدهم للنشر والتوزيع

١٢ شارع صفية زغلول- متفرع من شارع قصر العيني،

القاهرة، مصر

ت: 01023486228 - 01150288741 - 01227885322

e mail: daladham@yahoo.com

دار الأدهم للنشر والتوزيع

المدير العام: **فـارس خضـر**

المخرج المنفذ: **حسـام عنتر**

لوحة الغلاف للفنان بشير مهدي

الإهداء

إلى حبيبي:
سلام عبد إبراهيم النجار وابنتي همسة وولديَ
كفاح وصلاح

العشق موت وحياة و الله، لو حَلَفَ العُشّاق أَنّهمُ
مَوتى من الُحبّ أو قَتلَى، لَمَا حَنثُوا

الحلاّج

الأرملة

كان يوم نهاية الأسبوع، وشتويا قارصاً. استيقظتُ صباحاً لأجد نفسي ممتلئة بغبطة مجهولة ورغبةٍ في الحياة وبنوع من الحنين لأحبة أفتقَدهم.

عبرَ النافذة، تأملت الأشجارَ العاريةَ وهي تمتد حتى البحر البعيدَ مستعيدة حياتي مع شريك عمر كان عاشقاً للكأس وعلاقات عابرة مع نساء الوهمِ.

ثلاثةُ أعوام مضت علّى رحيله وأنا أقضي جّل وقتي مع ذكريات وسفر في وجوه أحبة، منهم مَنْ هاجرَ وضاعَ في أرض الله الواسعة أو رحّلَ إلى السماء ونامَ بهدوء.

أفقتُ من أحلام يقظتي وفي روحي نشوة وشوق إلى وجوه أصدقاء أحبهم قلبي، كانوا قريبين جدا من عذابي حين اخترت العيش مع حبيب أدمن الخمر. عدت أسأل حالي:

– لماذا سمحتُ له إن يستهين بموهبتي كرسامة وقبلت العيش خانعة معه؟

كان يعنفني في سكره ويتهمني بقسوة قبل أن ينهال عليّ ضرباً بكفيه حتى النـــزف. خائفةً، مكسورة الخاطرِ أذهبُ إلى سريري محاولةً النوم الذي باتَ شبه مستحيل دونَ حبوب منومة.

– صار عندي قَطعْ

يقول ذلك حين أعاتبهَ في اليوم التالي، وقتها لم أحس بحالة الرعب التي أعيشها، وهو يكيل لي كلمات الحب والوله صباحاً ليعود في الليل إلى شتائمهِ وتهمه البذيئة:

–هل هذا يسمى حُباً؟

بدأتُ أشك بكل قصتي معهُ وأنا أخرج من أوهام حياتي وحبي له شاعرةً بنشوة غريبة في هذا الصباح الشتوي المشرق وشوق بلغ ذُروته حينما بزغ وجه أقربهم إلى روحي!.

كان طيب القلب. لا يشبه مَن كنتُ أعرفهم. يكنُ محبةً واحتراماً لشخصي، ويجهد في مساعدتي للحصول على قاعة لعرض لوحاتي. بالعكس من زوجي الذي حاولَ أن يقنعني بأني رسامه فاشلة!. كان يشجعني ويطري موهبتي. كان ذواقاً للرسم وعازف ناي جميل وممتع. كنت أفكر باهتمامه بي خلسة وأخاف، إذ أصبحَ قريبا على روحي. شعرتُ به مختلفا عن الجميع! ولكنني تجاهلته متوجسةً مما في عينيه وقلبه من مشاعر ساخنة تكويني كلما التقينا!

ها أنذا أسمع رنينُ جملته في كل لقاء

– ماذا بك يا صاحبتي؟!.

حينما يرَى التعبَ والهالات السمراء تحيط عينيّ،

وأطالعه بوجهي المثقل بآثار الليلة الماضية يكمل:

- هل كسر خاطرك مرة أخرى؟

أجيبه بنظرة فيتمتم:

- اللعنة علينا نحنُ جنس آدم!

خاطر ذكراه اليوم وإحساسي أنه قريب جدا مني منحاني بهجةً ونَشوة حُب للحياة!

قلت لنفسي:

- كوني جريئة واتصلي به!.

- ماذا سيقول عني.. لا.. لا!.

- أتصلي.. أتصلي يا مسكينة فأنتِ اليوم حرة وهو الأقرب إلى الروح !.

قلت لنفسي ذلك بصوت عالٍ ونهضت من سريري لأفتح بريدي الالكتروني فقد بعث لي رسالةً قبل فترة و لم أرد عليه. كنتُ أبركُ في أوهام قصتي مع شريك العمر.

تمعنتُ بحروف رسالته وسؤاله عن حالي وتمنياته لي بالسعادة وأعدتُ قراءة هذا المقطع مرات ومرات

حينَ تَشفين من ألم فقدك أتمنى أن تعثري على إنسان يليق بقلبك لأنكَ تستحقين السعادة.

كتبتُ له شيئاً، وأعدتُ قراءةَ رسالته الأخيرة مرة أخرى فتجرأت وأضفت إن كان لديه الوقت والرغبة في مشاركتي وجبة عشاءٍ خارجَ البيت.

مرَّ أسبوع، اثنان، ثلاثة ولم انعم برد. حزنتُ ولبستني الوحشةَ بَعدما أملتُ روحي في لُقائه. بعد مرورِ أكثرَ من شهرٍ أجابني معتذراً عن التأخر لأنهُ كانَ في سفر، وأضافَ بأن لديه كلام وروحه مليانة سوالف وحكايات وأقترح موعداً للقاء. وافقتُ وبدون تردد كتبتُ لهُ:

- لا زلتُ متشبثةً بحلمي في حياة بلا ألم ومؤمنة بفلسفتي بأن الحياة تعاش مرة واحدًة وكذَّبة الحياة الأخرى هراء!

فرد:

- يعني على عهدي بك لا زلتِ تلكَ الملحدة الجميلة. لا يهمك يا صديقي، كَوني على يقين سأوقظ النارَ في روحكَ هذا المساء.

جاء غَير مصدق، أحسستُ قلبهُ المحب حين لامست أصابعهُ، ًفرحتُ ِبه وانتابتني مشاعر و أحاسيسَ هجرتني منذ رحيلَ حبيب عمري.

وبارتباك واضح قلت له:

- تفضل.. أدخل

أراح جسده على الأريكة

- قهوة لو شاي؟

- قهوة سادة!

كان مرتبكاً بدوره وهو يتأملني ويتفحص ماسحاً

أرجاء الصالة بعينيه، بدا وكأنه نالَ حلمه المستحيل أخيراً..

لم يقل شيئاً تناول قهوته بصمتٍ ووجهٍ منتشي ثم قال:

- تعالي! سآخذك إلى أماكن حلمت وتمنيت أن تكوني برفقتي حين أزورها.

أذعنت مستسلمة، فقد كنت أرغب في نزهة معه بكل حواسي، فنهضتُ نافضةً غبارَ الحزن من روحي! كافرةً بكل القيود والحواجز التي كانت تمنعني من رفقته!.

كان رائقاً و لا يشبه إي رجل يدعي اللطف، لم ينظر لي نظرات إشفاق تشعرني بترّملي. ضحكنا من الأعماق فرحينَ واحتسينا نخب لقاءنا من كأس أبو نؤاس، فانتابتني رغبة في الغناء وعشق عارم للحياة وكأنني صبية في العشرين. وانتشيت بأحاسيس افتقدتها منذ وفاة شريك عمري.

* * *

كنتُ بين الحلمِ واليقظةِ حين اتصلوا بي من المستشفى.

- أنتِ جنان؟

- نعمَ

- زوجك...

صُعقت! ماذا؟ متى؟ كيف؟

حبيبي كان في زيارة صديق له بالأمس وكان يوم عطلة نهاية الأسبوع. اتفقنا، هو يسهر في بيت صديق يعيشُ وحيدا بعدَ ما خسرَ عائلته بسبب عشقه للخمر وأنا سأقضي ليلتي مع صديقة لي تعيشُ وحيدة بعد ما انفصلت عن زوجها. وان نلتقي نهار اليوم بعد الساعة الثالثة لكي نذهب إلى بيتنا الواقع في قرية صغيرة في إطراف مدينة Roskilde.

أسودت الدنيا في عيني، غيرَ مصدقة ما تخبرني به الممرضة. ساد صمت قاتم أخرس. هّذا الصلاح جعلني أرى الدنيا من خلال عينيه برغم أنه لم يكن متصالحا لا مع نفسه ولا معي. كنت متعلقةً به وكان مشغولاً بكأسه. في نهاية تسعينات القرن الماضي حينما حللنا في عمّان نتأمل الوصول إلى إحدى دول اللجوء، خائفا مَن إعادته إلى العراق بعد قضاء فترة أقامته القانونية، اتركه في البيت الذي استأجرناه ينام ليستيقظ ويشرب وينام ويستيقظ ليعب المزيد باكياً شاعرا بتأنيب ضمير لم يفصح عنه أبداً بينما أقضي جلّ يومي أخيط ملابس في محل خياطة. أصبر نفسي على إهماله علنا ننجح في الوصول إلى دولة لجوء، فيعتدل حالنا.

ذهبت إليه فوراً وتأملت وجهه وجسده المحفوظ

في ثلاجة الموتى، تأملته طويلا ثم رحت أعاتبه:

– لماذا حرمتني منك ومن التمتع بجسدك ولذة ملامستك؟.

– لماذا تركته يبرد ويغيب لماذا.. لماذا.. لماذا؟.

صرخت وسقطت على الأرض مغمياً عليّ.

بقيت دائخة، حائرة! فماذا افعل بالمصيبة التي حلت على رأسي؟. وجدتني شبه وحيدة بعدما قطع هو أواصر علاقتي بكل أصدقائي ولم يبق غير أصدقائه الذين لم أطق وجودهم حين يزورونا في البيت فقد كان يجمعهم الكأس والثرثرة.

دأبت طيلة الأيام الثمانية، الفترة المسموح بها لحفظ الجثة قبل الدفن على زيارته قبيل نقله إلى العراق. كدتُ أجن وأنا أتأمله وكأنه نائم. احتوي وجهه بين يدي واضعة شفتيّ على أذنه معاتبة:

– لماذا يا حبيبي؟ لماذا يا من منحتك كل مابيَ من حنان ودفء؟ لماذا تخليت عني وتركتني وحيدة في منفاي؟ يا من كنت أهلي ووطني. يا من هجرتهما من أجلك، لماذا يا روحي؟ لماذا كنت أنانيا واخترت الخمر؟.

صرختُ بحرقة

– لالالالالالالالالالالا يا روحي أنتَ حي، أحسُكَ، اسمعُ صوتكَ وأنتَ تناديني جنان

تعالي، أطربيني بصوتك
(يا حبيبي يا حبيبي أني سهرانه الليالي والقمر يعرف بحالي
أنت تدري وهو يدري أنت مرسوم بخيالي
على بالي... على بالي يا حبيبي).
– يا حبيبي يلي سمارك حلو... رد علي.. أجبني.. أنهض.. وتعال معي.. مو أنت تدري أنت دنيتي في غربتي.. يا ربي ماذا فعلت بي؟ ماذا جنيت لكي تعاقبني بهذه الطريقة الوحشية؟ يا رب الكون كنتُ أصبرُ حالي وحرماني من نشوة ملامسة جسده ... حالمة بيوم صحوته كي نقضي بقية العمر معا لماذا يا رب الكون لماذا؟ أي عدالة هذه؟ وأين حكمتك؟.

* * *

بدأت خيوط الشمس تذبل وظفائر القمر تنور سماء Boserup Skov أكبر وادفأ غابة في مدينة Roskilde.

كان يعرف عشقي للنار وغرامي بها فجمع فروع أشجار يابسة وأضرمها فدارت روحي مع روحه حول الموقد في ليل الغابة الموحشة. كنا نتأمل بوجهي بعض على ضوء ألسنة النار وهي تلتهم قطع الخشب اليابِّس العاري راحلة به نحو السماء، تحول لهيب النار إلى جمرات حمراء تبعث الدفء في روحينا التي

بعثرتهما الخسارات والفقد. هو أيضا فقد شريكته والتي هاجرت مع رجل أخر أخبرني حال وصولنا إلى الغابة.

تعانقت روحانا ولم نعرف من كنا وما سنكون، أصابعنا تشابكت وراحت تحكي وتروي لبعضها وتهمس بالأمان. أصابعنا تعلن للنجوم والقمر، سوية ثراخت أصوات قلبينا الطفلين. كنت طفلة. كان صبيا يداعبني. يشاكسني بعيونه. بالقبل والشم والعناق، كان يرتجف على صدري، طريا، لينا، ذائباً بالمحبة.

لَم يبق لي ما أقوله بعد إن التصق جسده بجسدي وهو يمعن في شمي وحضني ومنحي دفء الكون النهائي.

استلقى بجانبي على مصطبة خشبية مصنوعة من خشب البلوط! أمسكت بروحه ودفئه، معانقة، خائفة ومتوجسة من فقدانه.

اختلطت عليه غبطة مشاعر رجل بصدود جسدي كنت أحاول البقاء بعيدا عن الفعل الشهواني بلمسات حنو دافئة.

سألته بشكل مباغت:

– ماذا يفعلُ الرجل حينما يجد نفسه وجها لوجه مع امرأة راغبة وتتمنع؟.

لم يكن يعرف بمَ يجيب. عمَّ الصمت وبدت على وجهه لمسة حزن تدل على إن وقت صحبتنا ومتعتنا شارفت على النهاية.

همسَ لي:

- كيف سنصل؟ أنا السكران وأنت المجنونة!

كانون الثاني ٢٠١٢

العاشقة والسكير

صحوت على رنات تلفوني النقال، لم أفلح بالرد. كان رقما مرمزاً، فضولي صار شديداً لسماع الرسالة المتروكة في آلة التسجيل، أصابني شعور غريب. بدأت أخمن من يكون صاحب الرقم السري الذي حاول الاتصال بي، جاءني صوته رقيقاً، حنوناً، دافئاً، فأصابني الذهول من نبرات صوته وهو يسأل عني وعن حالي، كان مرتبكاً وهو يخبرني بكيفية الحصول على رقم هاتفي الجديد، الذي لم أمنحه إلا لأصدقائي المقربين جداً. ترك رقم هاتفه لي وجملة قصيرة تقول:

Vil du være søde at ringe mig op min kære?

Jeg savner din stemme! – يا غاليتي حاولي الاتصال بي، عرفت وسمعت عما أصابك من أحزان، أفتقد صوتك.

أعادني صوته إلى سنوات من عمري كنتُ فيها امنح رحيق فرحي لكل مَن حولي، كان طالباً في مرحلة تطبيقية من دراسته في الدائرة التي اعمل بها تلك الفترة. كان من ضمن عملي وضع وتنظيم خطة عمل للطلبة الذين يقبلوا لتكملة دراستهم التطبيقية والمهنية في منظمة إنسانية، كنت أقوم بواجبي الوظيفي

مع الطلبة الذي مروا في حياتي العملية بمهنية، لكنه كان مختلفا، كان شاباً مفعماً بالحيوية شغوفاً بحب التعرف على ثقافات وشعوب الشرق الأوسط، وخصوصاً بلدي العراق في الفترة التي كان يحاول فيها العالم الغربي وأمريكا تغير النظام السياسي فيه.

فاجأني وهو يقول لي:

– سمعت وقرأت الكثير عنك قبل أن أتي إلى هنا، أنت السبب الجوهري في طلبي لإكمال دراستي التطبيقية في منظمتكم.

كعادتي حاورته بكل جدية وصرامة المرأة الشرقية والتي خبرتها الحياة، التجربة، المنفى.

– وماذا يعني هذا!

قلتُ مع نفسي بينما هو يكمل:

– بعد أن عرفت بالتحديد كونك المكلفة بالأشراف على عملي قررتُ الموافقة على شروط التطبيق التي طرحت في المقابلة مع مدير قسمكم. أنت لا تدركين سعادتي لحظة استقبالك وذكر أسمك الذي حاولت مرات لا تعد على نطقه بطريقة مضبوطة حتى لا أزعجك كالآخرين حين يحورون بلفظه. وكنت أسأل نفسي هل أنا في حلم أم هي حقيقة وأنت تشخصين أمامي بلحمك ودمك وسمارك الاصلي المختلف عن سمار بنات جلدتي اللواتي يدفعن ويحبسن أجسادهن

في حمامات شمسية. أنت حلمي الذي أرقني وسهّرني ليال طوال.

صَمتُ، ولم اعرف ماذا أجيب هذا الكائن الذي اقتحم ملكوت روحي المدلهة بشيخٍ سكيرٍ عابث بيومه وحياتي.

مر أسبوع، اثنان، ثلاثة، حاولت فيها معاملته بمهنية عالية وحازمة، ولكن لا خلاص منه، يوميا يستقبلني بوردة حمراء ويقبل يدي، فيذكرني بوالدي حينما يعود من عمله إلى البيت وبيده باقة ورد حمراء يوزعها علينا نحن بناته الأربع مردداً:

- ربي يْحْبْني، أعطاني هيجْ بناتْ حلواتْ.

لم تكن يدي تأخذ الوردة بل روحي المهجورة التي كانت ليلتها الماضية قاسية، وجسدي مهجور قرب حبيب عمرٍ مشغول بكأسه ونزواته التي لم أكن متيقنة منها بعد، كانت مجرد هواجس وشكوك من سلوكه الغريب والشاذ معي. منذ بدئه بالعمل ويومي لم يفرغ من ورد وصباح جميل وَقُبَل خجلة على خديّ ويديّ وأمنيات بمساء سعيد مع عائلتي.

كنت أحس عذابه ولوعته من تجاهلي لما يكنه لي من حب. صبر كثيراً وفي لحظة لم يحتمل قسوتي ومعاملتي الرسمية التي أصبحت أكثر من مهنية حيث عدتُ أتحاشى الحوار معه لوحدنا. لم يحتمل إذ أنتظر

في يوم حتى غادر زملائي فأقتحم غرفتي وسجد أمامي وراحً يصلي ويتمتم بكلمات لا افهمها.

كانت لحظة صوفية بكل ما تحمل الفلسفة الصوفية من معاني الوجد والحب. أصبتُ بالخرس. جمدتُ صامتة وهو يهذي ويهذي.

– هل تتصورين أنني لم اشعر بعذابك وحزن عينيك رغم تمثيلك بكونك سعيدة.

– ...!

– تعالي يا محبوبتي فأنا شاطئك وأنا من يحتوي روحك التي بعثرها وتمتع بعذابها رجل شرقي لا يستحق أن يلمس بشرة وجهك المعجون بشمس الشرق ومائه وترابه.

– ...!.

– قولي نعم وتعالي لنرحل إلى عالمٍ لا يفهمه شيخك البدوي.

وراح يردد جملة واحدة

– Give mig en chance!

أعطيني فرصة واحدة.. أعطيني فرصة واحدة

ارتبكت، وأصبت بدهشة من صراحته وجرأته، وخفت من روحي المتعبة والمتشبثة والموهومة بحبٍ تصورته أبديا.

صرخ صوت بداخلي، صوتٌ أقوى من كل القيود

التي خلقتها وتوهمتها بحب ابدي، صوتٌ نبّع من روح روحي:

– أعطيه فرصة،،، حاولي يا مجنونة أن تتمتعي بلحظتك، هذا عاشق موهوم بمحبوبة تمنحه السعادة

مرت ثوان كأنها دهرٌ وأنا بين الدهشة والفرح بهذا الذي يحلم بحُبي.

– جربي يا روحي، اغتنمي وعيشي لحظتك، أمنحي لحظة فرح وحب يا روحي.

– ألم تكوني منذ بدء الخليقة آلهة حبٍ ومانحةَ حياة.

– أنت يا عشتار السومرية امنحي ما استطعت من حبٍ لهذا الفتى المسكين الموهوم.

صراعٍ احتدم للحظة وهو يبرك على ركبتيه متوسلاً، صراع وحوار مع ذاتي المتشظية بين بلاد النهرين وبلاد الفايكنغ.

ونبٌّ صوت قديم من مجاهل بعيدة:

– لا..لا يا روحي تعقلي.

حاولت بكل دبلوماسية علمتني إياها الحياة في مخاضها العسير أن أهدئ من دفق مشاعره.

* * *

أعادني تلفونه اليوم إلى تلك السنين ومرارتي في سنوات المنفى.

– كم عاشق مسكين رفضت يا روحي وكم خاطر ودود كسرتي يا روحي.

ذهبت إلى الحمام لكي أغسل وجهي وجسدي من تعب وخيبة سنوات المنفى. احتسيت نخباً بصحة شبابي وروحي التواقة للحب والحياة، رقصت، ترنمتُ مع أغان افريقية في سي دي أهدته لي صديقتي الدنمركية الجميلة لونه المخلوقة التي عشقتني وتكن لي مشاعر لم المسها حتى من أمي التي أسمتني «هُدة» الذي يعني حسرة، وأنا فعلاً بقيتُ حسرةً في قلوب الكثير من الرجال الذين مروا بحياتي ومنهم هذا المسكين الذي اتصل بي اليوم وحاول أن يعبث بروحي المبعثرة الحائرة.

أنصت إلى روحي وعذابها وخسارتها وفقدانها، وخيبتها من حبيب الصبا والشباب.

ساعدني يا ألهي.. ساعدني يا علي يا أبو الحسن يا من تتمسك شباك ضريحك كل أمهاتنا والنساء الخائبات والمتكتمات على أحزانهن وبؤسهن.

مسكينةٌ أنا، عاشقة غجريةٌ روحها طائرٌ ضائع يبحث عن عش يمنحها الدفء.

وحيدةٌ وغريبةٌ مع ألمي

وحيدةٌ مع حزني ومرضي

وحيدة أحمل جثمان قصة عمري وشجنه إلى سماء

ليست لها لون، سماء شاحبة كشحوب حب من عشقت، كشحوب قصة حبي، وحيدة مع وجعي، مع يقيني من حياة خاوية وقصة حب عمري المذبوح.

وحيدة أحتسي كأس خيبتي، وأرنم مع صوت «رياض أحمد» النائح

- سري لما أموت

وحيدة وشيخي السكير الذي أعشق تركني إلى امرأة أخرى!

آذار ٢٠١١

القديسة والشيطان

سقيت روحه العطشى فلم يشكرني ومنحته ثقة بنفسه ومعنى لكينونته فخدعني لكنه ارتوى وانتعش وتركني أذوي» من كتاب ألف ليلة وليلة.

لم أصدق الخبر!.

منذ الأمس صرت مثل جدار جامدة على كرسي قرب التلفون.

- يعني سوف لا أراه ولا ألمسه وأشمه!.

وفيما كنت أظن أنني سوف أموت اللحظة القادمة، رن الهاتف مرة ثانية. ظننت أن المكالمة من العراق أيضاً فقد أغلقت التلفون حال سماعي الخبر، لكن كان رجلاً غريباً، نبرات صوته مليئة بالحقد على من ارتبطت و ظننت انه رفيق العمر وما تحمل هذه المفردة من معاني إنسانية أقدسها.

صوته حقودا وحسودا وينضح بالسم على رفيق عمري، ولكنه كان شجياً ومتعاطفاً معي دون أن اعرف من هو!

- أهلا

«Ja det er Nahla»

هذا ما تعودت عليه هنا في الدنمرك حينما ترفع سماعة التلفون تعلن عن أسمك، وهذا يعني عن هويتك

وشخصك، لا أسرار و لا خبايا ولا كذب ولا مواراة. الوضوح والصدق. كلمتان بسيطتان وسهلتان ولكنهما عادتا شبه مستحيلتين في قاموس من تعودت إن أقاسمه السرير وحلاوة الحياة ومرارتها.

كان المتكلم مرتبكاً وعجولاً:

– هل أنت فعلا مغفلة عما يدور حولك وفي بيتك؟!.

– ماذا تعني ؟

قلتها كمن يستغيث

– إلى متى ستبقين مخدوعة ومغفلة؟ هل فكرتي لماذا أختفتْ صديقتك من حياتكما وبشكل مفاجئ؟!.

كمن أغطسوه بالماء قلت بصوت مختنق:

– من.. من.. من ؟

– الكردية الأب وروسية ألام!

بدأت ألهث حتى كادت تتقطع أنفاسي وهو يكمل:

– تبصري وانتبهي على عمرك الذي أطفئت شرارة توهجه مع خسيس لا يستحق!

وأضاف صفات بشعة ناعتاً بها شريك العمر

صرخت بكل كياني:

– ما من خسيس غيرك يا جبان! من أنت كي تتطفل على حياتي!.

أغلقت الهاتف بعد ما دافعت عن حياتي وقدسيتها وشريكها الذي لم يترك لها سوى ذكرى وثلاثة ثمرات

سمعت ما أراد هذا المجهول أن يخبرني به! من هذا الذي كان ناوياً على جنوني!.. من؟

- هل كان مدلها بي؟

- هل كان حاسداً رفيق العمر ؟

- أكان يتابع تفاصيل حياتي؟

غرقت في بحر الأسئلة والحيرة وقدرت أن المجهول كان من بيئة زوجي الأدبية..

في لحظة أحسست نهاية الكون وشعرت بدوار ورغبة في التقيؤ!.

وبعد أن تمالكت نفسي هرعت فوراً إلى المخزن الكائن تحت الأرض كسرداب كي أبحث في أرشيف أوراقة المبعثرة كروحي. لعنت المجهول الخبيث الذي جعل من يومي وأيامي المقبلات جحيماً من الشكِ وعدم اليقين.

تفرغت تماماً لكي ابحث و أنبش في أوراقه وماضيه لكي أحترق وتحترق بقايا روحي مع أسراره القشة الهائمة في عالم نساء من حبر وورق.

وكان قد مر على سفره وإقامته في العراق ثلاثة أشهر.

* * *

كنت للتو خارجة من عملية جراحية ثالثة كبرى في العامود الفقري، وكنت في حاجة حقيقية إلى الهدوء والأمان الداخلي، كما لم تمر ثلاثة أو أربعة اشهر على محاولتي إن أسامحه على فعلته الشنيعة بحقي، حين اكتشفت رسائله وتوسلاته الغرامية إلى امرأة متزوجة تعرّفَ عليها خلال سفرته إلى القاهرة. اكتشفت ذلك عن طريق الصدفة، فقد سكر ونسى بريده الالكتروني مفتوحاً، كان يخاطبها بهذه العبارات:

(محبتي

دخلت في الفيس بك

طبعا أنا متخلف تكنلوجيا جدا جداً

وتجولت في صفحات من دخل معي أنت تستطيعين أيضا التجول في صفحتي

لا أجبذ ذلك لي أسبابي

فالمشاعر في الفيس مشاعة

وكأنك تنتهك لو كتبت بصدق

عدا أنني بسبب مخاض حياتي الشرس بدت ميالا للعزلة

فمنذ تقريبا ١٩٩٢ وحتى الآن أقضي جل وقتي وحيدا إلا في الفترة الأخيرة

هل قرأت فصل من روايتي نشر في ملحق الأحد في الأهرام المسائي أقصد الأحد الفائت أعتقد أن روايتي

ستكون في المكتبات في الأيام القادمة كم أتمنى أن أمسك تلك القطعة من حياتي والتي تعود لقرابة ١٩ عام مضت بيدي ككتاب ابعثي لي بنصك سريعا فهذه الأيام لست منشغلا بموضوع

محبتي ووردة).

٢٣-٨-٢٠٠٩

كنت أقرأ وأهتز مثل سعفة، يا إلهي.. يا إلهي يا رب الكون ماذا أفعل؟

هو يكتب عن لحظته في الدنيا العابرة وأنا اشعر بحياتي عبارة عن كابوس، قد يكون محقا، وأنا المجنونة في الحب والحبيب القديس.

لا ادري كيف يعيش وحيداً منذ عام ١٩٩٢ وولدت من نطفته البيضاء طفلنا الثالث في عام ١٩٩٣ ولداً تمناه هو وكنت احلم بالراحة الجسدية والروحية بعد التجربة الطويلة والقاسية التي عشتها مع الثوار في شمال العراق ومعسكرات اللجوء وموسكو منذ بدايات ١٩٨٤ حتى عام ١٩٩١ حينما تشردنا عقب هجوم الجيش العراقي العائد من الحرب مع إيران في المخيمات التركية والسجون الإيرانية وعذابات روحي من سكره في الشام وانتظاره الطويل في طابور الحصول على كأس بيرة أو قنينة فودكا في موسكو ورعبي الذي كنت أعيشه وحدي في مستشفيات

موسكو حين تتعرض أبنتا الوحيدة إلى أزمة ربو فأرقد معها وأنا مكسورة الخاطر لا أعرف مستقبلنا المجهول وقتها.

وكنت قد شجعته على السفر لا بل قطعت تذكرة السفر وودعته بمطار كوبنهاجن مع ألاماني النابعة من روح روحي إن يسعد ويحقق نجاحات متواصلة في مجال عمله!.

رسائل كلها شكوى من شريكة عمره والتي أنفصل عنها منذ ١٩٩٢ وهو يعيش وحيداً.

كانت مصيبة عمري وظننت بها الوحيدة، وكنت أقرء وأنا ارتجف من راسي إلى أخمص قدمي، كغصن شجرة ضعيف تهزه عاصفة شديدة، زوابع منْ القهر والجورً عصفت بروحي، كدت أنشل، وقعت في برزخ مابين الحياة والموت. قرأت كلماته المخطوطة بحس وعاطفة وهو يلقي تحيته الصباحية والمسائية عليها مؤكدا وحدته و انفصاله عن شريكة حياته منذ سنوات طوال حين اكتشف علاقتها بأصدق صديق له. فبات يشك في كل امرأة لأنه كان يظن بها قديسة.

* * *

شجعته على السفر الى مصر ومن ثم العراق، لكي أتنفس الأمان والنوم ملئ جفوني. قلت مع نفسي

دعيه يسافر لكي ترتاحي ويبرد رأسك من نكد وعذابات الخمر والسكر الذي أدمنهما وأسطوانته المشخوطة وهو يردد على مسامعي

(أنت مو مثل السوريات واللبنانيات ما تعرفين ترقصي وتهزي ردفيك)

أصمت ولغتي هي التساؤل من هذا؟

كنت في أمس الحاجة الى الكلمة الطيبة، المحنة، omsorg; kærlighed

كان في عالم الذات والأنانية

كنت ضعيفة صحيا وبأمس الحاجة الى الكلمة الطيبة

تذكرت مثل صديقتي الفلسطينية كانت تردده (الأهل يريدون الغنية والزوج يريد القوية)* وتعني بالقوية المعافاة صحيا.

كنت غنية روحيا ولكن لم أكن معافاة جسديا !

* * *

كل من يعرفني عن قرب كان يصفني بالغزالة أو المهرة. وكنت أحاول بكل جهدي أن لا أبين له ولمن يحيط بي ضعف جسدي الذي كان خارج إرادتي إلى أن كوتني في ساقي جمرة سيجارتي دون إن اشعر بأي ألم.

حدد موعد أجراء العملية الجراحية في عمودي

الفقري في ٢- أيار ٢٠٠٨! كان مشغولا في كأسه ونسائه العابراتّ ! كان عذابي مركبا من ألم في جسدي وأشد منه في حنايا روحي العاشقة له و أولادي.

كان يوما ربيعيا من أيام شهر نيسان من ذلك العام، كان هناك زعل في روحي منه، كنت في أوج مرضي وعجزي الجسدي، العجز الذي كان خارج طاقتي الإنسانية!

طلبت منه إن نتحاور ونتفق فيما لو لم تنجح العملية. كانت العملية خطرة جدا ونسبة النجاح ٥٠٪ كما اخبروني الأطباء!

قلت له:

- لا أريد منك شيئا سوى أن تغادرني بهدوء إذا أصبتُ بالشلل وإن رحلتْ روحي إلى مستقرها إثناء العملية. عش حياتك كما تريد ولكن لا تأت بامرأة أخرى إلى البيت الذي يسكن به ولدي وبنتيَ.

كان يلزم الصمت شاردا بعينيه من مواجهة عينيَّ.

- كنت أعيش كابوساً لا أتمناه حتى لعدوي كما تقول أمهاتنا!

لليوم الثاني و أنا أبحث عن ضالتي بين أكداس أوراقه المعبأة في أكياس متناثرة في المخزن. أبحث وأنا ألعن المتصل المجهول الذي سمم قصة عمري باتصاله. كنت

على يقين من أنني سأعثر على شيء ما فأنا أعرف حبيبي سكير يبوح بكل شيءٍ للورق ولا يتلف شيئاً.

ويالهول ما اكتشفت؛ عالم كامل كان يعيش فيه بعيداً عني طوال العشرين سنة الأخيرة. عالم كنتُ بعيدة عنه بعد الأرض عن أبعد نجمة في الكون. رسائل من أدبيات ملئها الكلام الناعم الودود المليء بالشكوى والشوق والبوح بالمشاعر والتجارب الحميمة التي لا تقال إلا بين المحبين.

كانت رحلة جحيمية في عالم إنسانٍ كنتُ أظنه ظلي الذي يرافقني أينما حللت!

تصدعتْ روحي قبل رأسي!.

غريبة كنت حقاً عن عالمٍ لم أفقه من حروفه شيئاً.

لكن هذا العالم لم يكن يهمني، فالكلام ليس به شيء سوى أحلام. وكنت أبحث عمن أشار إليها المتصل المجهول عاشقي المسموم في مكالمته. وتمنيت أن لا أعثر على شيء، تمنيتُ من القلب ومن لب روحي؛ ولكن عثرتُ على ما لم أريد أن اعثر عليه، رسالة يتيمة بخط يده إلى صديقتي التي كان يعتقد أنها ستكون بديلة عني أنا التي نعتني بعشتاره! وكتب نصاً تبارك خلقي وجسدي ليلة عرسنا ونشره.

كنت مخلصة في معنىً مطلق!.

كنت في وادي النور وكان يتخبط في وادي الظلمات

كنت قديسة ومحبة

كان شيطانا وقاتلا

ما أن أكملت رسالته الطويلة المتغزلة بتلك المختفية من حياتنا منذ خمسة عشر عاماً حتى صرخت مثل مجنونة وأنا أنحب وأحترق بحقدي على العاشق المسموم الذي أتصل وحبيبي الذي غادر الدنيا قبل يومين في العراق أصرخ صراخ مذبوح :

ليش.. ليش ماذا فعلتما بحياتي؟!.

ماذاااااااااااااااااااااااااااااااااااااا؟!.

كانون الاول٢٠١٢

ذات صباح غائم

كانَ يوماً أسكندنافيا خالصاً في الغيوم التي عمتْ سماءَ روحي قبل سماء مدينة Brønshøj التي كنتُ أحلم أن تكون مأوى وسكن دافئ أحلم به. لحظتي صارت أركانها عتمة وظلام ويأس من الحياة والعمل والأولاد الذين كنت أظن بهم خلاصي من كآبتي وسوداوية مشاعري، وحتى هو الذي كنت أظن به شريكَ عمر باتَ لا يفقه من عذاباتي شيئاً. مارستُ طقوسي الصباحية وكأنني أتمتع حقا بأجازة من العمل، لم أستيقظ مبكرةً تأخرتُ في النوم كأنني أميرة تعودت النهوض متأخرة وهناك من يجهز لها قهوة الصباح. وجدته يجلس إمام شاشة الحاسوب الذي أدمنَ معانقته طوال وقت تواجده في البيت.

- صباح الخير

- صباح الخير حبيبتي أش لونك اليوم؟.

- بخير!.

أجبته بحيادية متأملة لحظة رحيلي والخلاص من دجل المشاعر الزوجية الكاذبة. لكن لا..لا..لا..لا كانت صادقة على الأقل من ناحيتي.

كان في عالم أخر ليست له علاقة بي وبألمي وعذاباتي ومشاعر الفقد التي لبستني كجلدي.

وكنتُ أعد طقوس رحلتي إلى السماءِ كسيدةٍ مغمورة بالهموم والحزن.

وحيدَّة مع عَذابات غَربتي و أمومتي.

غزالة روحي كانت في غابة الهموم.

لم يغادر جلسته كما كان يفعل قبل عام ليقبلني قبلة الصباح أي منذ أن أصبتُ بعجز في العمود الفقري وصرتُ أشكو من ألآمه الفظيعة.ً ظل جالساً كعادته أمام َجهاز الحاسوب يتسلى بقراءة رسائل تأتيه منَ نساء بعد أن أشتهر كفنان فتوهم نفسه دًون جوان زمانهً.

كنت أحس بما ينسج من علاقات مع نساء تبحث عن متعة اللحظة. إذ يبدو منتشياً مرحاً غير مبالٍ بالألم الذي يسحقني ويعصر روحي.

مرة سمعته يتكلم بخفوت ظاناً بأني نائمة، فهو يعرف قوة الحبوب المهدئة التي أدمنتها بعد إصابتي، سمعته يستجدي عواطف ومشاعر أحداهنَ ويبكي وحدته وهجرانه من شريكة عمر اختارها من دون البنات قبلَ أكثر من ثلاثين عَاماً!ً.

* * *

وَدعتُ ملوحة بيدي ولدي الصغير الهام بالذهاب إلى مدرسته وعلى وجهي ابتسامة مذبوحة. دخلتُ الحمام كي أعمد هاجس الخلاص والرحيل. كنت

عازمة على السفر إلى الأبدية!. كنتُ فارغة الرأس تماما إلا من فكرة الخلاص، فلم أفكر مطلقاً ماذا يعني أن تقرر أمٌ كانت لولب في حياة ولديها تركهما في وسط الطريق؟.

ارتديتُ أحلى فستان. غيرتُ شراشف سريري التي اعتادت أنفاسي فقط منذ عام. وضعت قليلا من المساحيق على قسمات وجهي التي كانت تصرخ وتصيح:

- كوني كما أنت دون أصباغ!.

كان صوت الموت والخلاص أقوى واصدق من كل الأصوات التي كانت روحي تسمعها في ذلك الصباح الرمادي.

صوت الخلاص الذي كان الوحيد قوياً وطاغياً، مسيطراً على رأسي يناديني بحب:

- احسميها وتَخلصي من العذابات التي أدمنت روحك؛ آلام جسد مبرحة، هجران، جفاء.

- احسميها فالحبيب لم يعد يحس بكِ، الحبيب الذي قاسمتيه تفاصيل الحياة والعذاب والتشرَد والجسد الذي كان شامخاً وعامراً بالصحة والفرح.

لدي من الحبوب ما تقتل عشرة!.

وحيدة، خائبة، باكية ودائخة بعمري الذي ضاع في وعوْد وأحلام كاذبة.. من حِلم مدينة ماركس

الفاضلة الذي تشردت من أجله إلى لحظتي هذه مهجورة وجسدي ينوء بعلل وأمراض، ويومي الذي ابدأه بعّب الأدوية المسكنة لِلآلام التي أشعر بها تنخر روحي، وأنا أتحسر على لحظات نوم طبيعي.

خرجتُ من الحمام في طريقي إلى غرفتي الباردة، لمحته يحملق بالشاشة في أقصى الصالة حيث يسكر كل ليلة وينام. خلدت إلى سريري. أفرغت حفنة من الحبوب المختلفة براحة كفي، فتراقصت ألوانها، ألقمتها فملأت فمي، بلعتها مع كأس ماء قائلةً لروحي:

- نامي بهدوء وكفاك تمثيل دور الحسين.

بين الصحو والخدر، وفيما كنت على وشك التحليق سمعتُ تلفوني يرن وكمن يتشبث بقشته الأخيرة ضغطتُ على زر الجواب قائلة:

- هاي!. كان صوت مديرة القسم في الدائرة التي أعمل فيها:

- Det er Lone

أجبت وقد بدأ الخدرُ يدبُ بأنحاء جسدي، لكن كان ذهني متألقاً، سألتني عن موعد عمليتي فأجبتها:

- لا ... تأجّلَ الموعد بسبب إضراب الممرضات من أجل تحسين أجور وظروف العمل. فسألتني عن حالي الآن فقلت لها:

- ستأتين حتما لتوديعي وإلقاء كلمة في مراسيم رحلتي إلى الأبدية!

أغلقت الهاتف وبدأت أنفصل عن المكان وأخر شيء سمعته هو في الصالة بدأ في سماع أغاني فيروز الصباحية بينما وجه ولديّ ينظران نحوي وفي وجهيهما هلع وكأنهما يشاهدونني أصعد قليلا.. قليلا إلى السماء ثم صرت في عالمٍ آخر.

* * *

رحلت روحي إلى عالم أركانه ناصعة البياض. فرأيتُ والدي الحبيب وأعز مخلوق لديّ. جاءني هادئاً ومعاتباً متسائلا:

- ليش بويه؟

- ...

- وولديك نسمة وعادل

- ...

- لا..لا..لا.. يا بويه ليش؟

لم أستطع الكلام، لساني كان ثقيلا كثقل الحياة التي قررت الرحيل عنها، ثم سقطت في العدم.

أفقتُ في مكان غريب وأصوات غريبةً. حملقتُ في سقف المكان الذي لَمْ اشعر بأي ألفة معه. رائحة الأدوية زكمت أنفاسي. أحدى ذراعَيَ ممشدودة إلى السرير. الأخرى غرز بشريانها آبرة كيس المصل

البلاستيكي الذي كان يمنح جسدي الذاوي شيئاً من الحياة.

حاولت أن أتذكر لكن دون جدوى فذاكرتي أعطبها قهر الزمن وأوجاع التجربة.

- أين أنا؟

رددت مع نفسي:

- تسقيني بكرمْ وتْلومني من أسكرْ)* وأنا لم أسكر بل أردت أن أرحل عن الحياة المليئة بالزيف).

أغمضت عيني، فتحتهما معتقدةً أنني في موقع الثوار في زيوة خلف العمادية على نهر الزاب يوم ٥ حزيران حينما قصفنا الدكتاتور بغازاته السامة، لكن لا! الليلة مختلفة تماما، لم أكن بذلك المكان.. لا..

عينايَّ مليئتان بدموع عجزي و خسارتي.

آه كم كنت واهمة أنه كان ظلي.

لمحتُ وجها ولديّ، فلذة كبدي يترائيان إلى جانب السرير يحملقان بي بصمت.

* * *

لونا صديقتي ومديرة القسم الذي كنت اعمل به اتصلت بالشرطة حال إغلاقي الهاتف صبيحة ذلك اليوم وأخبرتهم بأن هنالك محاولة انتحار وأعطتهم عنوان بيتي.

هو لا يدري ماذا يدور في البيت الذي أنتج أجمل

وأعمق أعماله الفنية، كان غائبا عني.

جاءت الشرطة وطرقت الباب. وقف مذهولا لا يعرف بماذا يرد على أسئلة الشرطة التي كانت ملائكة خلاصي.

كان أنانيا وأنا كذلك.

أنانيتي كانت أقسى حين قررت الرحيل عن ولدي وهم في نصف الطريق

* * *

سمعت صوت ولديّ:

– ماما حاولي أن ترتاحي ولا تفكري .

– ...!.

– بابا ينتظر في غرفة الضيوف.

– ...!.

– مُنِعَ من الدخول!. كنتُ قد أوصيتُ بذلك حال يقظتي.

أيار ٢٠٠٨

---

* من أغنية للمغني العراقي الراحل رياض أحمد

رجال كالسمِ

صعقتُ وأصبتُ بالخرس حينما رأيتها وهي تحاول وبعناء شديد أن تدخل عابرة عتبة الصالة مقبلة نحوي بعباءتها السوداء وردائها الأزرق الغامق وقسمات وجهها الشاحبة المتصحرة والباحثة عن اليقين وجسدها الذاوي وكأنها لم ترتشف جرعة ماءٍ منذ دهر.

ازدحمتُ بالأسئلة؛ ما الذي أطفأ هذا الكيان الذي كان يشتعل بالحيوية والحياة؟ وأية مصيبة فجعتها؟ أخذتني اللحظة والسؤال إلى أماكنٍ كنتُ أعشقها في صباي وشبابي!

* * *

بعد عناء زيارة مثوى أبي في مقبرة السلام الواقعة في مدينة النجف، فرضاً أدمنته كلما ازور وطني حيث أبوح له بكل ما أصابني من حيف متمنيةً الشفاء من علل وأمراض المنفى. ذهبتُ مع أختيَّ الصغيرتين لقضاء الظهيرة في بيت خالي «عادل»، وكان قد انتقل وخالي الأكبر منه «جاسم» إلى النجف بعد وفاة جدي وجدتي إذ تقاسما قطعة ارض ورثاها ببناء بيتين يشتركان بباب داخلي، لكن خالي عادل رفيق طفولتي وصباي مات بغتة في سيارته أثناء عمله

تاركاً زوجة جميلة وستة بنات وولد واحد.

دخلنا عليهم دون موعد هكذا هو حضور الضيف في وطني. رحبوا بنا وكأننا هبطنا عليهم من السماء. كنت حزينة ومتعبة جدا من الزيارة التي أهد فيها باكية طوال وجودي جنب قبره حالمة بلمسه مستحيلة من يده الحانية وقبلة على جبينه!

- مية هلا بيكم..يا ألف هلا بنهودة.

استقبلتنا «وفاء» أرملة خالي «عادل» مرحبةً وحروف كلماتها تنقط حياة ولهفة، مع خالي «جاسم» الذي رحب بنا ترحيبا مشوب بارتباك سرعان ما توارى من قسمات وجهه. لم يثر استغرابيَ وجوده في بيت خالي الراحل، فهما أخَوة ورفاق طفولة وصبا ونضج حتى أنهما تزوجا بحفلة مشتركة وبنفس اليوم، لكن ما شدني وأثار استغرابي هو أرملة خالي وما ارتسمَ على محياها من فرح وحيوية وكأنها صبية عشقت للتو وليست أرملة حديثة الترمل مع ست بنات وصبي.

سألتهما:

- أين نجاة؟.

و«نجاة» زوجة خالي «جاسم» أجابت «وفاء»:

- مشغولة!.

وسارع خالي قائلا في نفس الوقت:

- سأذهب لها وأخبرها!.

لم أنتظر كررت سؤالي عنها، وهممت بالنهوض أقصد بيتها المشترك بباب خشبي داخلي بدون قفل، وفي لحظة نهوضي دخلت علينا مرحبة وهي تمسح قطرات عرق تتصببُ على جبنيها بفوطتها السوداء وحزن قاتم ينّحت تقاطيعها السمراء، وعيناها البنيتان سكبتا فيضا من الدمع ظننت للوهلة الأولى فرحاً بزيارتي فهي لم تكن زوجة خالي فقط بل كانت زميلتي في مرحلة الثانوية وتربطني بها علاقة حميمة حين كنا بعمر الورد والحلم وتبادل أسرار العشق والغرام.

* * *

أتلمس روحه وكيانه الجميل العذب ولقاءي الأول به بعد فراق دامَ أكثر من خمسة وعشرون عاماً حين زرتُ مدينتي وأهلي في خريف عام ٢٠٠٣ !

كان صامتاً وجميلاً وعذباً!

- هله بيك عدولي حبيب روحي خالي الزغيرون كنت أردد بينما دمعتان، لا بل درتان نزلتا على خديه وهو يقبلني ويضمني إلى صدره!

الحزن الساكن قسمات وجهه ونبرة صوته الخافتة والشيب الذي غزا شعر رأسه جعلتني هذه المظاهر أشعر بغصة ووجع، فقلت له مترجية بعد أن أخذته جانبا:

– احك يا روحي ما بكَ؟ أفض لي يا بعد قلبي، فأنا خزينةَ أسرارك بأفراحها وأحزَانها ما تتذكر أيام صبانا وأسرارنا، هل نسيت يا حبيبي؟!.

قلت له متذكرة كيف أفضيت له أول ما عشقت رفيق العمر والتجربة وأنا بنت السابعة عشر. ضحك ضحكة تعبان وهز رأسه وضم رأسي إلى صدره بصمت. صمته وحزن عينيه لم يفارقاني في السنين التالية في المنفى، كنت خائفة أتوقع رحيله في كل لحظة وهذا ما حدث قبل شهرين.

* * *

ازدحم رأسي بالأسئلة وأصابني الغمُ وأنا أراها ذاوية ناحلة متعبة منهكة بائسة ويائسة تلف جسدها الناحل بثوبها الأسود الطويل بعباءة سوداء تزيد من بؤس مظهرها. جلست صامتةً تنظر نحوي بين الحين والحين بنظرات مكسورة من عينيها الواسعتين. أوجعت قلبي وأشعرتني بأنها لا تستحق العذاب الذي تصطلي فيه. أشعرتني بذلك وهي تبحث في وجهي عن مبرر ما، نجاة التي كانت مشتعلة بالحياة والحيوية ومحبة الناس، ماذا حل بها وأي مصيبة وقعت عليها؟

من لا يعرفها سابقا قد يقول أنني أبالغ في وصفها كانت نخلة شامخة، مثمرة وارفة محنة وحياة.

حاولت جهدي أن اصبر حالي وامنعها عن السؤال

ولكنني رأيت في جلستها المسترخية المنهكة وكأنها وجه صديقتنا وزميلتنا في الثانوية «جميلة» الرقيقة الحنونة التي حضرتني بقوة وكأنها حلّت في جسد نجاة الجالس على الكرسي أمامي السادرة بصمتها ونظراتها الخائفة المذعورة والمستنجدة بيّ.

* * *

- ماذا بك يا ناهده؟

- هل أعطب المنفى ذاكرتك يا صديقتي ورفيقة تجربتي؟

أجابتني جميلة

كانت راقدة في سرير أركانه من الحديد البارد وشراشفه ألم، متروكة في غرفة معزولة تماما عن كل مرضى مستشفى الديوانية الجمهوري كان ذلك في شتاء عام ١٩٧٨ غرفة باردة جدا أركانها شاحبة وموحشة وذات شباك واحد مفتوح يطل على العراء الذي تدخل منه نسمات هواء باردة مسروقة من الدنيا التي ضاقت بروح جميلة الراقدة بكبرياء فتاة عاشقة للحرية والحياة ومتمسكة رغم أنها على حافة الموت بحلم مدينة فاضلة.

سرير مهجور في غرفة مهجورة في ركن مستشفى مهجور هكذا رموها كي تموت وحيدة. كنت أزورها كل يوم وأتخيلها تحكي معي لكنها كان ترقد غائبة

عن الوعي بوجهها الذي يطابق وجه زوجة خالي نجاة وصوت شخيرها المتقطع ينازع ملك الموت الذي يحوم حولها. أطيل التحديق بها وأراها تقاوم متشبثة بالحياة تسحب أنفاسها بعناء وجهد شديدين.

ظلت تحتضر أياماً وجسدها يذوي ويذوي على السرير كجسد نجاة التي ضمرت كتلتها الجالسة أمامي. جميلة تقاوم بضراوة سم الثاليوم الذي سقوه لها مع اللبن في مديرية الأمن العامة في بغداد بعدما يأسوا من جعلها تعترف على رفاقها بعد القبض عليها في مطار بغداد وهي تحاول الهرب خارج العراق أثناء الحملة على اليسار والقوى الديمقراطية.

كنت أزورها في المستشفى كل يوم بمساعدة رفيقنا «رسن» الذي يعمل فيها هو الآخر سيقبض عليه بعد هروبي إلى الثوار في الجبل ويعدم. كان يعمل في الاستعلامات ويعرف خفايا ما يجري.

جميلة عاشقة حالمة كانت تحلم بتحقيق العدالة الاجتماعية لكنهم عندما عجزوا عن سحق كبريائها وعنفوانها سقوها سماً أسقم جسدها، لكن نجاة من كسر عنفوانها وسحقها بهذا الشكل المرعب، أي جلاد سقطت تحت سوطه؟.

لم أطق صبراً، سألتها بصوت خافت:

- ماذا أصابك يا نجاة؟!.

- ...!

حركة وهمسة من عينيها كان جوابها على سؤالي البطر، لم افهم شيئاً، لكن أحسست أن خلف هذين العينين والجسد الذاوي والذابل قصة لا تختلف عن قصة انكسار جميلة.

أزداد فضولي فألتفت إلى أختي الصغيرة متسائلة بهمس، فغمزت وقالت بصوت بالكاد سمعته:

- أش أش أش!.

استجبت لطبيعة الجو الذي خيم، وفهمت من عيني أختي أن عليَ أن أتحلى بالصبر إلى حين مغادرة المكان.

* * *

رفضت الكلام في سيارة الأجرة التي أقلتنا إلى الديوانية، وكانت محقة جدا.

ما أن احتوتنا ساحة البيت الصغيرة حتى أمسكتها من كتفها وقلت مستعجلة الجواب:

- يا صغيرتي نوريني بمصاب نجاة؟! نفثت حسرة وقالت:

- مصيبة!.

- ما تحكين خلي أفتهم!. قلت بغضب.

- أش أقول العائلة العراقية تمزقت؟!.

- إي يا روحي أحكي أنت ما تدرين أش عمل بيّ وضعها.

قالت:

- طيب اسمعي خالي الذي فقدناها في لحظة غادرة وحقيرة اللي حضوره نسمة، أبو عيون واسعة، الفقير اللي يكدح كل يوم حتى يجيب لعائلته الكبيرة كيس خبز ودفء، أرملته «وفاء» وخالي جاسم زوج «نجاة» عشاق ويعيشون مثل زوجين قدام عيونها!.

-ماذا تقولين؟ هذا عين الجنون؟

لا..لا..لا..لا يا أختي يعني خالي عشيق أرملة أخوه اللي ما صار له شهرين ميتْ!.

-أي يا روحي!.

والكارثة نجاة ووفاء صديقتان وتربطهن علاقة حميمة. وهذا سر علة نجاة اللي فشلت كل التحاليل الطبية بالعثور على مرض بجسمها.

- ماذا تقولين يا أختي؟

- مثل ما أخبرتك

* * *

بعد شهرين اتصلت بي أختي إلى هنا في الدنمرك لتخبرني بموت نجاة، إذ وجدوها ميتة على فراشها في الصالة بعدما هجرت سريرها المهجور.

الديوانية نيسان٢٠١٣

وداعا ابنتي

إلى أبي جابر القزمري

لا أنسى ما دمت أتنفس لحظة دخوله عليَّ، بعد فراق دام أكثر من سبعة عشر عاماً، في شقة استأجرتها في «السيدة زينب» بأطراف دمشق خريف ١٩٩٩ مع ابنة صديقتي الفلسطينية «خلود» السمراء التي تقطر روحها محبة وطيب، كانت كابنتي التي لم ألدها.

دخلَ عليَ وهو يردد:

- ها بوية نهودة وأخيرا شفتك!.

كان متماسكاً قوياً، يبتسم، وعيناه البنيتان ناصعتين بالمحبة واللهفة والسؤال عن حالي وماذا جرى لي في غربتي وسنين بعادي عنه كنت أكاد أطير فرحا والدنيا لا تسعني من نشوة الفرح ولحظة لقائه.

* * *

كنا نستيقظ فجرا، أعد له الفطور، ونرى الشمس كيف تصعد منيرة بضوئها الناري وجهينا والمدينة، كنت أسمعه يتمنى لعمالها وكسبتها رزقاً موفوراً، ولطالباتها الستر والحفظ اللواتي نراهن قادمات إلى مدارسهن كفراشات زرقاء بزي المدارس الموحد تنورة زرقاء وقميص أبيض. لحظات أحسها كالحلم الآن بعد مرور كل تلك السنين من الغربة والترحال.

* * *

أبي الذي لوعني فراقه جاء متحديا رغم خوفه القديم من البعث، لم يكن لديه أي نشاط سياسي سوى حبه للشيوعيين، رغم ذلك اعتقلوه بمقر الحرس القومي عام ١٩٦٣ وعذبوه لأيام ثم أطلقوا سراحه، فبات مرعوباً لا يفتح الباب أبدا في الليل لطارقٍ، وتنوب أمي عنه.

كنت أظنه يخاف. لكن هاهو قد سافر متحملا عناء الطريق الصحراوي الطويل من الديوانية حتى دمشق المدينة التي عشت فيها عاما في سنوات ترحالي وتشردي وولدت ابنتي همسه فيها. جلسنا نتأمل بعض دون كلام.

كان تعباً من الطريق الطويل وأخبرني بأنهم باتوا ليلة عند الحدود في الرطبة، حيث عاش رعب فكرة عدم رؤيتي في ليلة من أطول ليالي العمر كما وصفها.

قطع صمتنا وتأملنا السكران صوته الحنون وهو يقول:

- بويه عندك سجادة وتربة.

أريد أصلي لربي ركعتين. وأشكره على تحقيق أمنيتي التي كنت أظنها مستحيلة!.

ناولته سجادة اشتريتها له من سوق الحميدية، وجلست قبالته أتأمل سجوده وركوعه وصوته المسبح بحمد ربه وبدلا من الركعتين استمر في مناجاة

ربه والكلام معه بوجد عاشق صوفي. كنت منهكة أيضا من شدة وعنف وعنفوان المشاعر المكبوتة طوال تلك السنين فتركته في خلوته مع ربه وخلدت إلى النوم متوجسةً من عتابه على اختفائي المفاجئ تاركة أبني البكر «كفاح» يلوع علي وعمره ثلاث سنين في شباط ١٩٨٥

* * *

صحوت على أنفاسه الدافئة تلفح وجهي ونبضات قلبه ترن في سكون الغرفة الصغيرة، وجدته جالساً قرب رأسي وهو ينحني عليّ يتأمل قسماتي الغارقة في النوم ويمسح شعري الطويل المسفوح جواري على الفراش بأصابعه الحانية، قلت له وأنا بين النوم واليقظة:

- ها بويه!.

وكأنه كان ينتظر جملتي كي يبوح:

- بويه نهوده!.

قالها وهو يدعك عينيه بباطن كفيه وكأنه يريد أن يصحو من سحر اللحظة، وبنفس الوقت يمسح الدموع:

بويه أريد أن أصدق أنت نائمة ورأسك يتوسد مخدة جنب رأسي... وأسمع نبضات قلبك !!!!

اسمع أنفاسك وارى جسدك حيا وروحك تنبض بالحياة..

يا بويه ما تدرين ماذا جرى لنا وبالتحديد ماذا جرى لي... لقد جاءوا بوجوههم البشعة نفسها التي جاءت واعتقلتني بالثالث والستين أخذوني وشدوا عيوني بقماش أسود واسمعوني أقسى الكلام وأسفله، لسبب وحيد كوني والدك، قلت لهم أنها متزوجة منذ أربع سنوات وليست لدي أي سلطة عليها المرأة تابعة إلى زوجها. كانوا لا يسمعون بل يتلذذون بإذلالي وسحقي. اللحظة التي اقتادوني بها إلى مديرية أمن الديوانية كانت من أقسى لحظات عمري. سريتك وتكتمك على طبيعة حياتك السياسية هي سبب صمودي.

كنت أحملق به وهو منحني علي متخيلة رعبه وهو بين يديهم. كان قد صمت قليلا قبل أن يردف مكملاً:

– وضعوا ورقة بيضاء أمامي وقالوا وقع، قلت على ما أوقع، قالوا براءتك من أبنتك الشيوعية العاهرة، وقع ولا كلمة.

بصمتُ بإبهامي على تلك الورقة وأنا أشعر بفخرٍ كونك مناضلة خلصت نفسها بذكاء وشجاعة.

أرجع جسده إلى الخلف قليلا، فأنهضت جسدي لأجلس بمواجهته وهو يكمل:

– أمك المصيبة، صارت شبه مجنونة، لم تترك سجناً

يعتب عليها. دارت على كل سجون النساء في العراق تستجدي عطف السجانين على أمل العثور عليك، وتلقت الضرب والطرد والإهانة وبذيء الكلام، نعتوها بأقبح الصفات. وكانت تتكتم على ما تلاقيه لكنها في مرة عادت حزينة وظلت تبكي طوال الليل سراً، ترجيتها فأفضت لي قائلة:

حجي تدري ماذا قالوا لي اليوم وصفوني بالعاهرة و إلا لما أنجبت بنت شيوعية.

كم شعرت بالذنب لما سببته لوالدي من عذاب وذل، لكن كنت متورطة والثمن أما حياتي أو هذي التفاصيل. وأنا سعيدة بسعادة أبي بيّ. كنتُ أنصت لقصص أبي الموجعة وهو يتعمق في الهول وكان دليله قلبه، أردف: تدرين يا بنتي ما رعب تلك اللحظات، نهاية عام ١٩٨٦ وكان قد مرَّ على غيابك سنة جاءوا إلى البيت، جلسوا في غرفة الضيوف متصنعين الحزن ليقولوا وهم يظهرون صورة لفتاة حلوة تشبهك وكأنها توأمك هذي بنتك ناهده اعتقلناها وهي تحاول التسلل من مواقع المتمردين في الموصل وأعدمت!.

سكتوا وقت قصير وسألوا:

- هي بنتك لو لا؟!.

-أجبتهم بنعم لكن في قرار نفسي كنت أشعر بأنك حية.

وهاأنذا ألمسك وأسمعك وأراك فما أسعدني من أب يلتقي ببنته المناضلة.

ما أجمل تلك الأيام الأربعة. كنتُ أتلذذ برفقته في زيارة ضريح «السيدة زينب». أجلس في الصحن المكتظ بالزائرين أنتظر أكمال مراسيم زيارته. كان يقبل منتشياً والسعادة تملئ قلبه، فمن أحلام حياته زيارة نادبة الحسين أخته الشهيرة التي أسمى أصغر أخواتي باسمها. تنتابه الحماسة فيطلق جملته في وجهي منتشياً:

– نهوده أني عندي خمس بنات وثلاثة ولد مو؟!، أنت تعادليهم، شجاعة وسويتي ما يعجز عنه الرجال!. ويقبلني في وجنتي ويشمني شماً يبكيني. ذكرني في تلك الزيارة التي مرت كالبرق كيف كنتُ أصعد عصر كل يوم بصحبته أبدل أحواض الماء الفخارية الصغيرة في برج الحمام وأطعمهن الحبوب والخبز المفتت، وعند الغروب أقوم بإدخالهن البرج الكبير. وكيف يعتمد عليّ حيث كنت أصطحبه إلى حمام السوق الشعبي كي أحرس ثوبه وما فيه من رزق يومه، وكان عندما يناديني كي أدلك ظهره أضع ثوبه بين ساقي ولا أتركه جوار الخزانات. يذكرني ويضحك من قلبه:

– عرفتك نهوده ذكية ودقيقة وحنونة وصبورة!. أسمع صدى ضحكته المرحة يرن في أرجاء نفسي،

وأرتفع صوته واضحا دانيا قويا وهو يناديني من حمام شقة الزينبية:

– بويه نهوده تعالي دلكي ظهري!. عدت لا أسمع غير جملته هذه منذ أن أخبرني أخي الصغير بعودة مرضه الخبيث «مرض السرطان» الذي عاث بمعدته وجهازه الهضمي. أتذكر الآن بوضوح أنه نادني مرة واحدة فقط و لم يكرر النداء، وهذا طبعه خفيفا لا يريد الأثقال على الآخر حتى لو كان طالعا من جسده. شغلني وصول أمي وأولادي الثلاثة من الدنمرك بصحبة زوجي، وفرحهم بلقاء أجدادهم، فلم أهرع له كما كنت أفعل في طفولتي وصباي.

* * *

عزمت على رؤيته مرة أخرى مهما كان الثمن. ظللت أتصل يومياً إلى أن أخرج من المستشفى بعد أن استقرت حالته قليلا، فتمكنتُ من الحديث معه مباشرة. جاءني صوته قوياً، حنوناً:

– هلا بويه هله.

– أش لون صحتك بويه؟ قال بصوت جاهد ليكون مرحا:

– بخير أنت أش لونك وسلام والأطفال؟!.

باغته بقولِيَ:

– راح أجي للديوانية أريد أشوفك!.

سمعت شهقة ذعره قبل أن يتماسك ويقول:
- لا.. لا كل شيء إلا هذا!.
لا لا.. بوية.. يقتلوك. أصررت:
- لازم أشوفك بويه لازم!.
- أني أجي بويه!.
- طيب أتفقنا.

* * *

في دمشق جاءني مع أمي. كان متعباً، منهكاً، ذاوي الجسد، شديد النحول ولمحة حزن في عينيه لم يستطع إخفائها، أشعرتني أننا سنفترق قريباً وإلى الأبد. مكث معنا أسبوعاً واحداً فقط.. اتصلت بطبيب مختص لكي يأتي ويفحص جسده الذي أقدس.

لم يدعني أنام في فراشي مع زوجي جوار أولادي الثلاثة، بل طلب مني النوم وسطهم بينه وبين أمي مازحاً مع زوجي:

- كافي أبن سوادي أخذت بتنا وشردت بها، هذي الكم يوم نأخذه منك!.

ويطلق ضحكته الصافية رغم ألم قسماته الشاحبة المجهدة.

ظل يدللني بأرق الكلام وأعذبه، ولم أصبر، في صبيحة اليوم التالية قلت له:

- أريد أن ألبي رغبتك وأمنيتي في تحميمك يا بوية!.

ما أن أكملت جملتي حتى تهلل وجهه فرحاً غيبَّ ألم قسماته فتضرجت وهو يصرخ:

- يا بويه هذه أمنيتي الأخيرة بالدنيا.

أدخلته الحمام وأجلسته على كرسي.

كان يتحرك بعناء مغالباً ألمه ويسرد لي قصصا طريفة فيها الكثير من الفكاهة.

كنت أدلك جسده الشديد النحول الضامر بهدوء حابسةً دمعي ومغالبة حزني وفرحي المختلطين.

في اليوم السابع ودعتهم. أدار رأسه ملتفتاً من خلف سيارة الأجرة ورمقني بعينين حزينتين وكأنه يقول : وداعا ابنتي!..

تشرين الاول ٢٠١٣

صدفة أحنُ إليها

ركضت لاهثة لكي ألحقَ بالحافلة. نجحت بتسلق درجاتها الاثنتين باحثة بعيني القلقتين عن كرسي فارغ. كانت الحافلة مكتظةً بالركاب وكل راكب كان مشغولاً بعالمه وشأنه إلا أنا فقد كنت مملوكة لشعور راودني في أزمنة وأمكنة مختلفة. في صباي وشبابي وترحالي في مدن وعواصم دول مررت بها قبل استقراري الأخير هنا في الدنمرك، أو زرتها في سفر. شعور عنيف يجذبني في الحلم والواقع أن أصادف حبيباً أحس بقربه ونبض قلبه فتذوب روحي بروحه وأتجلى بعشقه حد الثمالة. كأنني امرأة خلقت لكي تَعشق وتَنعشق!.

وفيما كنت في نشوتي من حلمي شعرت بعيون تتفحص جسدي الممشوق وبشرتي السمراء وعينيَ السوداويين. كان الكرسي فارغاً بجانبه، تزحزح ليترك لي مجالا كي اجلس جواره.

شعرت به وكأنه يناديني بعينيه العسليتين الواسعتين اللتين تكحلاهما ابتسامة خفيفة غازلت روحي وقالت تعالي اجلسي هنا يا سمرائي وحلم حياتي!.

* * *

وسيماً، رشيقا، حيويا وواثقا كان قلبي يراه. لون عينيه

العسليتين كان سر انجاذبي وفرحي به. كانتا تشبهان بل كانتا عيني حبيب صباي ورفيق رحلتي ..هما بكل الحس والكلام الذين كان يخدرني بهما في كل لقاء كنا نخطفه خائفين من شر عادات وتقاليد في سنوات ماضيات. كان يحتضن عدة رياضية وكأنه أم تحتضنُ طفلها الوحيد. طريقة احتضانه وتمسكه بها سحرتني. تملكتني سعادة خفية وخاطر حلمي في العثور على جوهرتي في الحب بزغَ شامخا سمعت صوتا يهمس لي:

– هذا حبيبك الذي حلمت به روحك التائهة.

لوازمه الرياضية أوشت لي انه لاعب غولف وهذه لعبة رشيقة احتكرها البرجوازيون والمرفهون اقتصاديا. ومن خلال علاقتي العميقة بهذه الطبقة من المجتمع الدنمركي قدرت أو أوهمت نفسي بقد تكون هذه اللعبة تعويضاً عن حنين ودفء حضن حبيبة تمنح هذين العينين ما تستحق من غزل وتأمل وحب. تخيلته حتى ظننت أني سمعته يهمس لي:

– تعالي يا سمرائي وحلوتي أسكني قلبي.. فروحي ستمنحك ما تبحثين عنه.

أربكتني عيناه وجرأتهما.

جلستُ إلى جانبه سامعةً نبضات قلبه وقارئة ما تريده عيناه. كان طائرا فرحا، رجلا تتمناه كل أنثى.

بغتةً انكمشت شاعرةً بأنني سجينة تقاليدي وتربيتي الشرقية التي تمردت عليها في سبعينيات القرن الماضي.

– ماذا أصابني أنا الغجرية، البرية، المتمردة على تقاليد مجتمع انبثقت من رحمه وكنت ومازلت أمقته لشدة احتقاره لبنات جنسي؟!.

لا أدري!.

هل العمر والتجربة والمخاض العسير التي عشتهما جعلا مني إنسانة مترددة، متوجسة من كل جديد، ومتأنية في خوض أية مغامرة؟.

– لا لا لا تخافي ... أنت امرأة عجنت من التمرد على كل بالٍ وحقير.

قلت ذلكً محاورة نفسي بصوت خافت.

مرت ثلاثون دقيقة وكأنها لحلاوة وندرة الأحاسيس التي شعرت بها كانت ثلاثين ثانية.

صراع وأسئلة وخوف من روحي التي أتوجس تمردها!.

فكرت أن أكون أكثر جرأة ومبادرة في التعرف عليه وطلب اللقاء به وكما فعلت في عزّ شبابي وثورتي في سبعينيات القرن الماضي حين اتصلت بحبيبي ورفيق تجربتي وطلبت منه أن نلتقي متعذرة في طلب مساعدته أو استشارته لحل سوء فهم حصل

بيني وبين أخته التي كانت صديقتي
أنا الآن أرملة وأعيش وحيدة.. ما المانع؟!.
بين الحوار مع الذات والرغبة في اقتناص الفرصة كان الزمن أسرع من تكتيك أخلاقي وتوجسي من خوض تجربة عشق ورحلة مع حبيب ظننتُ أني عثرت عليه صدفة.

* * *

لماذا الخوف والتردد؟ وأنا أرملة.. ووحيدة.. وغريبة. أكرر وأكرر الحوار مع ذاتي..
أنا حرة الآن.... لا عائلة ولا وطن أخاف تقاليده ولا رفاق أنصاراً في وحشية حياة الجبل أخشى أحكامهم.. لماذا التردد؟ كوني جريئة يا أنهار!.
كنت في حلم غير مصدقة أن هناك من أعجب كياني رغم علامات الشيخوخة وخطوط العمر المرسومة على تقاسيم وجهي. كنت تائهة بين الحب والسفر الروحي مع هذا الجالس بجانبي والتردد في أن أطلق قيود وحدتي ووحشة أيامي. نزل وودعني بنظرة من عينيه، لم تكن من عينيه بل من روحه التي أحسست أنها تدعوني للرحيل معه في متاهة السؤال والحياة. نزلت في الموقف نفسه دون أن أشعر رافقته الطريق دون كلام. رمقني بنظرة شعرت بفرحه وسعادته برفقتي. كانت السماء ملبدة بالغيوم. وقفنا

تحت المطر ننصت متأملين الصدفة التي جمعتنا.

كان يتأمل بشرتي وينصت إلى قلبي. وكنت أنصت بسعادة ونشوة غير مصدقة لصوته العذب و لهاث أنفاسه.. قليلاً.. قليلاً غرقنا مستمتعين بنشوة الصدفة غير مكترثين بالمارة فرحينَ بحوار العيون. شعرت بلذة ناعمة ودافئة داعبت روحي وهزت كياني، اشتعلت به وذبت لاعنة حزني وخسارتي وبؤس حياتي قبل أن ألتقي به.

في لحظة نشوتي وصمتنا المتأمل في صدفتنا الكونية وحضور حلمي القديم الحديث باغتني بقبلة وضمني إلى صدره بشدة، احتواني كياناً وروحاً.

وجدتني أردد بصمتٍ أغنية جنوبية من هناااااااااك!.

* * *

فجأةً ودون أن أعي بادرته بالقول فيما كان يهم بالقيام من جواري باغياً النـــزول في الموقف القادم:

Du må have en god aften! og jeg håber at vi snart ses

– أتمنى لك مساءً طيباً كما أتمنى أن نلتقي قريبا.

قلت له جملتي لكني كنت واثقة بأني لن أجرؤ على اللقاء به مرة أخرى، أو ربما سألتقي به ذات صدفةٍ أو .... لا أدري

آب ٢٠٠٨

سرقة عنوان

نهضت من نومي مبكرة كعادتي. ضغطت على زر مفتاح كومبيوتري الصغير لكي أبدأ يومي بسماع صوت فيروز العذب. عادة أدمنت عليها منذ سبعينيات القرن الماضي حينما كنت طالبة في ثانوية البنات المركزية في مدينتي الصحراوية التي أعشق.

صوت فيروز يجعلني أبدأ يومي كفراشة تريد أن تمنح الحياة لكل من حولها، أطربني صوتها:

من زمان وأنا زغيرة
كان في صبي يجي من الأحراش
ألعب أنا وياه
كان أسمه شادي

ولكن صبي عمري كان يحمل كل الأسماء!.

على تلك الأنغام دخلت المطبخ لكي أجهز قهوة الصباح وأنا أدخل خريف عمر قصة عشقي للحياة والإنسان، بعد ما أخذت دشا باردا أزاح معاناة جسدي وروحي اللذين ابتليا ببرودة وكآبة المنفى.

* * *

حينما التقيتُ به في زحمة الحياة وخوف البنات من إعلان حبّهنَ، سألني عن تاريخ ميلادي، أجبته:

– لا أعرف، فقد ولدت منذ عشر ثوان، في اللحظة التي رأيتك فيها، لحظة الانفجار الأول وخلق الكون. يا حبيبي كن على يقين أنني ولدت حين وقعت عيناي في عينيك اللتين صارتا بحراً لي أنا فقط. قال:

– طيب يا صبيتي أريدك رفيقة لعمري وروحي المبعثرة وذهني الداعر وقلبي الذي خاب من يقين اسمه الحب وتعب من فقد الأحباب.

أجابته عيناي اللتين تدلهتا برقة عينيه، وقلبي الغض وروحي الطفلة بالتجربة والحب:

– قبلت بك وأريدك كما أنت عاريا وبدون رتوش، فأنا صبية حالمة بحياة تشبه حياة الطيور، طيور أبي الحبيب الذي كنت أعتني بها. الطيور محبة للنور ونهار الشمس، وعاشقة لعشها الذي تعود إليه مع أولى خيوط الظلام.

أحسست بعينيه، كانت معي ولي، فشممته واحتضنته وعبقتني رائحته التي بتُ أشمها أينما حللت.

* * *

كان مرتبكاً، خائفاً، قلقاً، متأملاً، حائراً، مترددا، غير واثق، خاسراً الكثير ولكني أيقنت أنه كان عاشقاً يبحث عن حبيبة ورفيقة عمر تحتويه كله، بخساراته وذنوبه ودعره!.

أربكني أنا الصبية التي تبحث في قيظ بلدي الحار وشمسه المحرقة عن نبع يرويها.

كنتُ مهرة جامحة تصهل في الحقول والآفاق وفضاء الإنسان ولا تحدها حدود. رقصت وطربت روحي التي من لحظتها أبحرت في سبعة محيطات وتسلقت جبال الهم والحياة، حلقتُ في سماوات الغرام والحبيب المستحيلة.

حاورت نفسي وقلت لها:

– هذا هو ضالتي التي أضناني البحث عنه في قصص وروايات العشق والحب وحديث الصبايا الخائبات.

نادت عيناي قبل جسدي الغض كي يأتي ويغفو في حضني الدافئ. ومن لحظتها أقسمت مع نفسي:

– سأحارب كل العادات والتقاليد، لا بل الكون وما يحتويه من ممنوعات فقد كنت أشعر بانتصار وسعادة لا يفهمها الفرد والمجتمع العراقي، ماذا يعني لصبية في عمر الـ ١٨ ربيع العثور على مكمل لروحها المتمردة والجامحة الفتية، الحالمة بحبيب مطلق، مثل طيرة ملكت السماء أمعنتُ في كسرً جدرانً الممنوعات كلها، العادات والتقاليد، العائلة والمحيط، وقيم مجتمعٍ بت أحتقر تقاليده.

* * *

لا وطن، لا أهل، لا أولاد، ولا حبيب، كيانات أفنيت عمري من أجلهم!.

فجيعتي الكبرى كانت بحبيب العمر والتجربة. فقد عشت واثقة بأن لم تولد بعد حواء غيري تسبح في بحر عينيه.

كان وهما عشت معه سنين عمري الذي ضاع بين المنافي.

ضاقت بنا السبل، ولم نجد حلاً وسيطا يجعل حياتنا المشتركة معقولة، لم أجد حلاً يوفق بين حلمي به حبيبا وواقعه المبعثر فهو مزاجي وسكير ويعيش لحظته بكل عنفوانها دون مراعاة لمشاعري في الكثير من المواقف، فقررتُ وعلى سبيل التجربة الانفصال المؤقت، بالانتقال للعيش في سكن مستقل على أن نبقى أصدقاء بما لدينا من تاريخ مشترك طويل وثلاث ثمرات هم أولادنا.

* * *

فتحت بريدي الالكتروني وفي قلبي أمنية؛ أن أجد كلمة حب أو سؤال عن حالي وما جرى لي، لكنني فوجئت برسالة معممة إلى جميع الأصدقاء والصديقات عنوانها «سرقة عنواني». كان ذلك في شهر تشرين الأول ٢٠٠٩. كان صديقا للآخرين ولكنه مختلف بالنسبة لي. كان حبيب صبا ورفيق تجربة وشريك حياة. حزنتُ وأدخل عنوان رسالته الالكترونية الأسى إلى روحي. كتبت له متعاطفة مع المصيبة التي

حلت به فذلك يعني سرقة كل الأسرار في زمن العولمة والعلاقات الافتراضية، هذا الزمن الذي خرب الذوق النفوس. وكعادته رد علي بالبوح لي بأسراره وهو يؤكد لي عذاب ألم وحدته وسرد قصة سرقة عنوانه البريدي!

– تصوري يا صديقتي ..أنا السارق الأكبر والمتفنن بالسرقة، من فتح رسائل رفيقة شككت بخيانتها لزوجها، التلصص على بنات الجيران، زوجات جيراني وهن يضاجعن حينما كنت صبيا محروما، لم أشم رائحة الأنثى بعد، إلى سرقة الكتب من المكتبات. أنا السارق بامتياز أسرار الناس... يسرقونني!.

– من سرق عنوانك؟

– حواء ! سيدة أو امرأة سمِها ما شئتِ يا صديقتي هي من سرقت عنواني

– كيف؟

– من سرقت عنواني، تظن أني سرقت حياتها وظلمتها، وتتهمني بسرقة لهفتها في حب الحياة جاعلا منها إنسانه واهمة ومصدقة لكل كلمة ناعمة أقولها.

هي من أوهمتها أنها حبيبة العمر.

هي من جعلتها تتحمل كل مصاعب المنفى على وهم حبي المطلق لها. هي التي تسامحني وتمنحني كلها حينما أكيل لها كلمات المحبة والعشق مخففا من وقع

إساءتي لها حين أكون مخمورا. هي التي تعتقد أنها المرأة القوية الواثقة من نفسها والتي أوصلتها إلى حافة الجنون، أنثى ظنت أنها الوحيدة التي أدخلتني غوايتها، هي من سرقة عنواني.

صَمَتُّ وذهلت من المصيبة التي حلت بصديق العمر وحزنت لأجله!. سألته:

- كيف يا صديقي نوّرني، أي لغز هذا؟!.

هل هو يهذي؟ هل هو مخمور؟ أسئلة جالت في رأسي وهو مستمر بسرد الكارثة التي حلت به

- القصة وما بها يا صديقتي أنها خمنت الرمز السري فدخلت وغيرته حينما راودتها شكوك، وهي تلاحظ طرب مزاجي وتبدل طباعي في فترة إعيائها الجسدي، لم تعد ممتعة فقد أصابتها الكآبة، لم تعد ترقص معي، وجسدها صار عالة عليها عقب عمليتين في عمودها الفقري، عادت ضعيفة ولا أنسى أبدا التساؤل الذي كان في عينيها الحزينتين المتوسلتين بيَّ ما دمت حيا، لكني كنت تعبت وأمسيت غريبا عنها، ويئست من عودتها إلى سابق وضعها حينما كانت غزالة تمرح بيومي كما عودتني. كانت شعلة نار وكتلة حيوية قوية الروح صلبة الإرادة وكنت طفلها المدلل.

فاجعتها كانت يا صديقتي لحظة اكتشافها عبثي بحياتها، بعمرها حينما عثرت على ما خطته أناملي في

جنون لحظتي في رسالة كنت أغازل فيها امرأة لم أتيقن من صدق مشاعرها ومحبتها لي فقد كانت متزوجة وتكتب لي عن ولدها حين تمنحه دفئا وهي تفكر في عشيق مستحيل، وأخرى صبية في الحب والحياة تبحثُ باحثة عن أب ضاع في زنازين الدكتاتور، صبية حائرة في الاختيار بيني وبين آخر يملك محل لبيع البترا، أنا الذي لا أملك سوى روحي المبعثرة وبحر كلماتي التي أجعل منها شاطئ ترسو به قلوب أقسى نساء الكون!. أسفي عليها صبيتي الواهمة التي كانت تظن أنها عثرت على من يعوضها حنان الأب!.

– صديقتي أتعرفين أين يكمن عذابي؟!.

قلت له على الفور متشوقة:

– أين؟!.

– يكمن فيها لم تشعر أو تفهم مدى حساسيتي التي لم أعلن عنها حينَ كانت في عنفوان قوتها وعافيتها لم أعلن فحسب بل كنت أوهمها بقوتي وعنفواني، أنا المرهف الضعيف الذي يبكيني أبسط مشهد حياتي أو سينمائي درامي. قلت مع نفسي:

– أنه يهذي بالتأكيد، فنحن انفصلنا منذ أكثر من ثلاث سنوات، اعرفه من صوته أن كان صاحٍ أم سكران.

***

يا إلهي.. أي امتحان وضعتني فيه، أي امتحان؟!.
أنا المسالمة التي كنت أعيش على يقين حبه!.
داخلني الشك وأنا عدت شبه مقعدة. كان رائق المزاج يغني غير عابئ بألمي، ويختل في الغرفة الأخرى قافلاً الباب، كان يخرج منها في كل مرة متألقا لامع العينين وكأنه في أيام علاقتنا الأولى، في لحظة قررت معرفة سر بهجته في تردي وضعي، فدخلت على أيمله وضغطت على حقل نسيت كلمة السر فعاد إلى الأسئلة التي يتوجب على الإجابة عليها والمسجلة لديهم، ورأيت الأسئلة ولما كنت أعرفه باطنا وظاهرا تطابقت إجاباتي مع إجاباته وانفتحت أبواب جهنم عليّ. جهنم كلماته وهو يراسل حواء مسكينة كحالي موهمة بالحب والخلاص من حياة شبيهة بحياتي في بؤسها. رسائل تدعوه فيها إلى زيارتها في بيروت وهي لا تدري أي جحيم ينتظرها، وهي المتزوجة التي تمارس الخيانة مثل زوجي.
(أهلاً بك يا... الطرقات مفتوحة، وشوارع بيروت جميلة في انتظارك)
وهو يرد عليها :
(الحميمة... أسعدني ردك السريع أغبطك من القلب وأنت تتسكعين في بيروت روحي معك تتسكع أيضا سترشقك أنفاسي التي تدور في الأمكنة معك الآن

لا أستطيع بسبب وضعي الخاص هذه الأيام روحي معك في بيروت تحرضني على الحلم تسعدني كلماتك يا حبيبتي وأنا ظلك العابث المجنون).

* * *

ارتشفت كأس Gammel dansk الدنمركي بدل فنجان قهوتي المرة المعتادة، لم يحدثني ولم يفض لي بالحقيقة كما سردته، لكن تخيلت القصة من رسائله، وقلت مع نفسي:

- اسكري يا روحي!.

فارتفعت روحي بأجنحة الخمر محلقة في نهار خسارتي، فأفضت بيّ إلى مكان غريب سمعتُ فيه نواح طفلٍ يتيمٍ مهجورٍ وفي يده قطعة خبز يابس وسؤال!.

٢٠٠٩-١١-١١

ما كتبَه محرر قسم سرد وقص في مجلة الكلمة الالكترونية الأدبية والفكرية الشهرية والتي يرأس تحريرها الناقد د. صبري حافظ في تقييمه للنصوص التي نشرت.

القديسة والشيطان

تبحث الكاتبة العراقية في إشكالية العلاقة الزوجية في أبعادها النفسية والاجتماعية والحسية ولغز الإنسان – الرجل – الذي تقدم له الزوجة المحبة كل كيانها ومع ذلك ينسج في السر عالما ينأى عنها من خلال بنية قصصية مبتكرة ولغة مكثفة. ناسبت إيقاع السرد لنص الداخلي. الكلمة العدد ٧٠ فبراير ٢٠١٣

* * *

الأرملة

تغور الكاتبة العراقية مقلبة شؤون المرأة وعالمها الداخلي وخلجات نفسها في التجارب القاسية كموضوع فقدان شريك العمر كاشفةً عما تشعر به من هجران وإهمال من شريك تركها جائعة إلى حنانه وجسده، والنص هنا يلقط لحظة مهمة يكون فيها الإنسان قد نهض من جديد لينهل من نبع الحياة ومباهجها. الكلمة العدد ٧٣ مايو ٢٠١٣

* * *

رجال كالسم

في بنية قصصَية شيقة تحاور القاصة العراقية حالة إنسانية مستعصية، وضع المرأة العاشقة والأم حينما تكتشف خيانة الشريك مع صديقتها وأقرب الناس إليه ويمنعها المحيط والوضع المجتمعي من التعبير فتذوي بصمت، ولا تكتفي الكاتبة بذلك بل تحيل الحالة وتساويها بعملية اغتيال بالسم لرفيقة لها قديمة تعتقل في حبكة محكمة وفلسفة معنية بالإنسان كوجود والمرأة ككيان يعاني من ثقافة مجتمع يسحقها بلا رحمة. الكلمة العدد ٦٨ أكتوبر ٢٠١٣

* * *

العاشقة والسكير

تتناول الكاتبة العراقية نموذج المرأة الشرقية المتحررة والقوية وهي تواجه مأزقها الوجودي بين زوج سكير منشغل عنها، وعاشق فتي يحيط بها ويحاصرها موقظاً مناح خفية في نفسها في بيئة بلد بلغت فيها حرية الإنسان الشخصية أقصاها لاقطةً من خلال صراع نفسي شخصي صراع ثقافتين المنشأ والمنفى. الكلمة الألكترونية الشهرية العدد ٦٧ نوفمبر ٢٠١٢

* * *

ذات صباح غائم

من نقطة حاسمة في الوجود تدخل القاصة العراقية عالم بطلتها العاشقة المجنونة التي تخيب من رفيق عمرها وحبيبها فتصبح الحياة في تلك اللحظة لا معنى لها ولا غاية فتعد لرحلتها إلى الأبدية بهدوء ومن خلال تلك اللحظات يتعرف القارئ ويحس أعمق أحاسيسها وكذلك حكاية عمرها في نص مؤلم وممتع وشاعري الأداء.

الكلمة العدد ٧٦ أغطسطس ٢٠١٣

* * *

وداعا ابنتي

تغور القاصة العراقية في هذا النص الشفاف الموجوع في عمق علاقة إنسانية بين الأب الطيب، الذي كانت تعتقده يخاف كل عمرها بينما خاضت الساردة غمار تجربة مقاومة سلطة دكتاتورية بالعمل السري لسنوات ثم التحقت بحركة المقاومة المسلحة، لتكتشف أن والدها لم يكن جبانا بل محبا يغامر من أجل أبنائه، ويتجشم رحلة السفر خارج العراق زمن الدكتاتور رغم شدة مرضه لكي يلتقي بها ولمرثين في بنية قصصية تنهل من الشعر لحظتها.

سيرة ذاتية

مواليد الديوانية – العراق–

– ساهمت بشكل مبكر في النشاط السياسي

– التحقت بصفوف الثوار في كردستان العراق ١٩٨٥

– أصيبت بالأسلحة الكمياوية في ٥–٦–١٩٨٧ في وادي زيوة الواقع خلف العمادية.

– في حملة الأنفال آب ١٩٨٨ نزحت مع جموع الأكراد وعبرت الحدود التركية لتمكث في معسكرات اللجوء بأقصى الشمال الإيراني

– عام ١٩٩١ حصلت على اللجوء السياسي في الدنمرك والتي تقيم فيها حتى الآن

– حصلت على شهادة الدبلوم في الإدارة والاقتصاد ١٩٩٨

– عملت في منظمة مساعدة اللاجئين الدنمركية كمستشارة ولأكثر من عشر سنوات.

– عملت مترجمة في منظمة الصليب الأحمر

– تخرجت من معهد الدراسات العليا في جامعة كوبنهاجن ٢٠٠٥ نشرت العديد من القصص والمقالات في مجلة الكلمة الألكترونية الشهرية وجريدة طريق الشعب، العرب اليومية اللندنية، ومجلة أفاق أدبية العراقية ومواقع الحوار المتمدن، الناقد العراقي وغيرها من الصحف العربية والعراقية.

أعطيه فرصة،،، حاولي يا مجنونة أن تتمتعي بلحظتك، هذا عاشق موهوم بمحبوبة تمنحه السعادة

مرت ثوان كأنها دهرٌ وأنا بين الدهشة والفرح بهذا الذي يحلم بحبي.

جربي يا روحي، اغتنمي وعيشي لحظتك، أمنحي لحظة فرح وحب يا روحي.

ألم تكوني منذ بدء الخليقة آلهة حبٍ ومانحةَ حياة.

أنت يا عشتار السومرية امنحي ما استطعت من حبٍ لهذا الفتى المسكين الموهوم.

صراع احتدم للحظة وهو يبرك على ركبتيه متوسلاً، صراع وحوار مع ذاتي المتشظية بين بلاد النهرين وبلاد الفايكنغ.

الغلاف: Dina Art

الأدهم
للنشر والتوزيع